كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للأستاذ الفاضل العلامة
الشيخ عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس
باعلوي قدَّس الله سره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين المنسوب إلى الإمام الغزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدي الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذي باهى به سيد المرسلين ﷺ ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين ،

لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في بابه ، لم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملاً على الشريعة ، والطريقة والحقيقة كاشفاً عن الغوامض الخفية ، مبيناً للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة ، على صبابة صبابة ، من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتبته على المقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة في عنوان الكتاب ، والمقصد في فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه ، والخاتمة في ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقدمة في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق ، والباطنة أيضاً قسمان : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع : ربع العبادات وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج ، كتاب

تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ، كتاب الصبر والشكر ، كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ، كتاب التفكر ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات فأذكر فيه خفايا آدابها ودقائق سنتها وأسرار معانيها ، ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سنتها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات : فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم المعاملات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات : فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد في فضل الكتاب
المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه
والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم ، فاجتنى ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجليت عليه عرائس أسرار المعاني ، فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع

رضي الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعى ، فللّه دره ، من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلّى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمـان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته في فوارة العلم ، والعمل والعلا ، والفهم ، والذكا أصلها ، وفروعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

ذكر الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمني ، سئل عن تصانيف الغزالي فقال : من جملة جوابه محمد بن عبدالله ﷺ ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعي أيضاً ، أن الشيخ الإمام الأكبر ، أبا الحسن علي بن حرزهم ، الفقيه المشهور المغربي ، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعاً ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي ﷺ فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ ، فلما أقبل ابن حرزهم ، قال الغزالي هذا خصمي يا رسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك ، واتباع سنتك ، فخذ لي حقي من خصمي ، ثم ناول النبي ﷺ كتاب الإحياء ، فتصفحه النبي ﷺ ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر إليه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص ، وأن يضرب ويحد ، حد المفتري ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي الله عنه ، وقال يا رسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ في ظنه ، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزهم ، وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ، عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى ، ويتشفع برسول الله ﷺ ، إلى أن رأى النبي ﷺ دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفي وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال اليافعي : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الأكبر ، القطب شهاب الدين أحمد بن الميلق الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت

الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله أرواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفراييني ، يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة ، يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطرأ عليَّ حال وأخذني عن نفسي فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سِنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي ﷺ في أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ، الشافعي ، ومالكاً ، وأبا حنيفة ، وأحمد ، رحمهم الله ، يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد وهو ، ﷺ يقررهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي ﷺ بطرده ، وإهانته فتقدمت أنا وقلت يا رسول الله هكذا الكتاب ، أعني إحياء علوم الدين معتقدي ، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك ، فأذن لي ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالي ، وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً ﷺ إلى كافة العرب والعجم ، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة في وجهه ﷺ ، ثم التفت وقال : أين الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يا رسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليه الغزالي يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي ﷺ أشد سروراً بقراءة أحد عليه ، مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره ﷺ لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين .

فصل

أثنى على الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه ، أنه من أجلّ كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي ، إلى آخر ما ذكره ، مما الأولى بنا في هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر محاسن الإحياء ، ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه .

وقال عبدالغافر الفارسي : في مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النووي : كاد الإحياء أن يكون قرآناً ، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي ، أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً . وروي عنه أنه قال : مكثت سنتين أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم ، علوم وأسرار عظيمة ، ومفهومات غزيرة غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أثنى على كتاب الإحياء ، بما أثنى عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم يا أخواني بمتابعة الكتاب والسنة ، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، وخصوصاً كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس .

ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وأخراً ، وظاهراً وباطناً وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين ، للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشأن ، الملقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأنبيائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، في الدنيا والآخرة وصار عالماً في الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء .

ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة ، كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج في العفص والماء وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب ، وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالي ، لباب الكتاب والسُّنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية ، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من المهتدين .

ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصاً إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط .

ومن كلامه : إشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة .

ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصاً البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : نطق معاني معنوي القرآن ولسان حال قلب رسول الله ﷺ وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ، مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ، أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ما أقول : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران : 185) .

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ، فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه ، فيه النور . ومن كلامه : السر كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين ، المسمى أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .

وكلامه رضي الله عنه ، في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه والحث على العمل بها ، خصوصاً إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالى ، شيخ بن عبدالله العيدروس رضي الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبدالله ، في الغزالي وسميته الجوهر المتلالي ، خصوصاً من كلام الشيخ عبدالله في الغزالي ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذلك تحقيقاً لرجائه ، ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبدالله رضي الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وناهيك ببشارة في هذه العبارة التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لا يجازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق : 37) فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل . وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير من شهادة ألف ألفٍ وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى أن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ علياً قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمس وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ علياً ألزم ولده عبدالرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبداً ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ . قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ بن

عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه ، مدمناً على مطالعته وحصل منه نسخاً عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة ، فملازمته ميراث عيدروسي ، وتوفيق قدوسي ، فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ، وجاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير علي بن أبي بكر بن الشيخ عبدالرحمن السقاف لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس ، قلت : وهو صحيح فإني مع خسيس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعتي له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه ، ثم يفتر برجوعي إلى ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل لعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حرياً أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم عالية ، وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع به مثله ، لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمراً ظاهراً معهوداً . وشيئاً مجرباً موجوداً ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبيه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجمل في العربية والإرشاد في علم الكلام ، وانتشارها مع أن ما حوت من علم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضعاف ما فيها ، مع تحقيق تحرير العبارات وتشقيق المعاني ، وتخليص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ، لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بيَّن ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يضعه الله في القلب .

قلت ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه ، لنفسه فيه قوله :

أخي انتبه والزم سلوك الطرائق ... وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالباً شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق ... وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعاني ضواحكاً ... يباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق

وكم من لطيفات لذي اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم في بديع اللفظ يجلي عرائساً ... وكم من شموس في حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعاً ... على در لفظ للمعاني مطابق
وكم من عزيزات زهت في قبابها ... محجبة من غير كفؤ مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صباراً تعافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكي جناها فواكهاً ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى حتى علا فوق من علا ... بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعاني وعانق
وارجع طرفاً في بديع جمالها ... وطف في حماها منشداً كل سابق
ترى في بدور الحي أقماراً قد بدت ... بعالي جمال مدهش لب عاشق
فكم انهلت صباً وكم قشعت عمى ... وكم قد سعت في غربها والمشارق
فيضحي براح الحب سكران مغرماً ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسي يناديها طريحاً ببابها ... منعم العيش في الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

فصل

وأما ما أنكر عليه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم في سندها . فأما من جهة تلك المواضع فممن أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ، عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا مليه إلى ضلال وإضلال . ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف : 19) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء : 227) ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى

الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة ، الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ما ذكره وأما ما اعترض به من تضمينه أخباراً وآثاراً موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع في الموضوع ، وحاصل ما أجيب به عن الغزالي ومن المحبين الحافظ العراقي أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر وهو في غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة روي ، وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ في اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه تارة والسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب الفقه للمتقدمين ، وهي كتب الأحكام لا الفضائل توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووي رحمه الله في المتأخرين ونبه على ضعف الحديث ، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقي : قال عبدالغافر الفارسي سبط القشيري ، ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لمآثره إلى آخر ما ذكره ، ومما يدلك على جلالة . كتب الغزالي ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم ، كأن الشمس طلعت من مغربها ، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث ، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب ، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها ، لتوهمه اشتمالها على الفلسفة ، وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره في مملكته منا كير ، ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد ، في عكس ونكد ، بعد أن كان عادلاً .

خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه

وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارة ، وكشف المعضلات ، والتبحر في أصناف العلوم ، فروعها ، وأصولها ، ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة ، وحسن السيرة والاستقامة ، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجهات الفانية ، وإطراح الحشمة والتكلف ، قال الحافظ العلامة ابن عساكر : والشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي ، والفقيه جمال الدين عبدالرحيم الإسنوي رحمهم الله تعالى ، ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد واجتهد ، حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام

يتبجح به ويعتد بمكانه منه : ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلاً عظيماً ، لعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلاً بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره ، فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلاً على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ، لازماً بيته ، مقبلاً على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، بدعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الاثنين ، الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمسة وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه ، كما خصه بها في دنياه .

قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ما حكي في كرامات الشيخ سعيد العمودي نفع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الرباني ، شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدي ، وكان معاصراً للغزالي ، نفع الله بهما .

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع وخرق بعدها ستين حجاباً ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقب موته رحمه الله تعالى .

ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي ﷺ وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتكما حبر هكذا ؟ قالا : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي ﷺ ، بأن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأوليين أعني عمر بن عبدالعزيز

والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوجيز والخلاصة في الفقه وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجملها ، وله في أصول الفقه المستصفى ، والمنخول والمنتحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القوانين ، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلداً ، وكتاب أسرار علوم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل وكتاب القسطاس المستقيم وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب مبادي الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهري وكتاب الأمالي وكتاب في علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ... وأنت الذي علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازع المردي
فربع عبادات وعادته التي ... يعاقبها كالدر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه ... لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات وإنه ... ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال ما صورته .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استأجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل

التفلسف ، وما ارتضيته أخرا من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لإجابتك إلى طلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكّلاً عليه ومستوفقاً منه ، وملتجئا إليه .

اعلموا أحسن الله إرشادكم ، وألان إلى قبول الحق انقيادكم . أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم : 32) .

ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأغمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة لأميز بين كل محق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولا متكلما إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جراءته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها الله في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد مني بالصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام ، لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروي عن النبي ﷺ : «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ» فتحرك باطني إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي أولاً : إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبغي أن يكون مقارنا للنقص ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل ، الواحد أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في معرفتي لكذبه ، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه وأما الشك فيما علمته ، فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، وكل علم لا أمان معه ، ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد

حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً : لأتبين أن يقيني بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، وهو أمان محقق ، لا تجوّز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكنني أشكك نفسي فيها ، فانتهى بعد طول التشكيك بي إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة جملة ، فيغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسبب ميلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها . فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض .

والشأن العظيم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لساني ، حتى اعتقل عن التدريس فسكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليّ ، فكان لا ينطق لساني بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل في القلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضي بالمقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل بالخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبداً ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم في التعلق بي والإنكار

عليّ ، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مال ، ولم أدخر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصداً للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لعيال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي ، ثم تحرك بي داعية فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، ثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب بالذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعي عنها ، فيدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي أن نذكره ، لينتفع به ، أني علمت يقيناً ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خيرٌ منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى .

قال العراقي : فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرى ، فأطرحها ، وسعى في طلب الباقية وكذلك النفوس الذكية ، كما قال عمر بن عبدالعزيز : إن لي نفساً تواقة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكازه وركوة ، فقلت له يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلي شزراً ، وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمنزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق مهلاً فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .